الفصل الثامن
العمارة فى آسيا الوسطى
العمارة فى سمرقند فى العهد التيمورى
(٧٧١ - ٨٠٧هـ/ ١٣٧٠ - ١٤٠٥م)

سمرقند الياقوتة العظيمة، إحدى كبرى المدن فى جمهورية أوزبكستان الحالية، وأوزبكستان بمعنى أرض الأزبك، وهى كلمة فارسية من شقين: ازبك وتعنى سيد نفسه وستان بمعنى الأرض، وكانت سمرقند عاصمة أوزبكستان، غير أنه منذ أن اجتاحت قوات الجنرال الروسى(كاوفمان) الإمارات الإسلامية فيما وراء النهر عام(١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م) فى ظل حكم القيصر ألكسندر الثالث تحولت العاصمة إلى طشقند بهدف تقليص الدور التاريخى للمدينة الإسلامية، ومنذ ذلك الحين لم تعد سمرقند أكثر من متحف للفن والعمارة.

وسمرقند مدينة مشهورة بجودة هوائها وعذوبة مائها ووفرتها وخصوبة بساتينها وفواكهها الحلوة، وينزل فيها المطر بكثرة فى الربيع والخريف، وتكسو جبالها المحيطة بها الثلوج فى الشتاء، واشتهرت سمرقند عبر التاريخ بالحرير وكان يعرف بالحرير السمرقندى.

وقد ذكرها الرحالة والجغرافيون فى كتاباتهم حيث يقول ابن بطوطة عن سمرقند: "وهى من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا، مبنية على شاطئ واد يعرف بوادى القصارين عليه النواعير تسقى البساتين، وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج، ولهم عليه مصاطب ومجالس يقعدون عليها، ودكاكين تباع فيها الفاكهة وسائر المأكولات، ويقول أيضا: "وأهل سمرقند لهم مكارم أخلاق ومحبة فى الغريب.

ويصف الاصطخرى سمرقند فى كتابة المعروف بالمسالك والممالك بقوله: "والموصوف من متنزهات الأرض فى صغد سمرقند ونهر الابله وغوطه ودمشق، وصغد سمرقند أشهر ألاماكن الثلاثة، وهى أذكى بلاد الله وأحسنها أشجارا

وثمارا، وفى عامة مساكنهم البساتين والحياض الجارية، قلما يخلو مسكن أو دار من نهر جار.

وأورد ياقوت الحموى سمرقند فى كتابه معجم البلدان بقوله: "كأنها السماء للخضرة وقصورها الكواكب للإشراق، ونهرها المجرة للاعتراض، وسورها الشمس للاطباق.

وتقع مدينة سمرقند على ضفاف نهر زرافشان(ناثر الذهب) على بعد حوالى(٢٠٠) كيلو متر شرقى بخارى، وبجوار مدينة سمرقند القديمة (الأثرية) توجد أطلال مدينة افرسيان التى تعود إلى حوالى (٥٠٠) سنة قبل الميلاد حتى تدمير المغول لها عام (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) وكان فى نهاية القرن الأول الهجرى/ بداية القرن الثامن الميلادى قد استولى عليها القائد العربى (قتيبة بن مسلم الباهى) وبعد الفتح أنشأت مدينة جديدة فى الجنوب الغربى منها هى مدينة سمرقند التى أصبحت مركزا صناعيا هاما لإنتاج الورق، وقد عرفت أيضا صناعة الفخار والزجاج، حيث أظهرت الحفائر الأثرية عن وجود بقايا لأفران الفخار والزجاج، كما كشفت عن يقايا المسجد الكبير الذى أحرق أثناء غزو المغول لها.

وقد عادت لسمرقند مرة أخرى شهرتها العالمية فى عام(٧٧١هـ/ ١٣٧٠م) عندما استولى عليها الإمبراطور المغولى تيمور لنك واتخذها عاصمة له، وقد أحاط المدينة بسور طوله (٧) كيلو متر وجعل لها أربعة أبواب:

باب الصين الذى يقود إلى الشرق، وباب بخارى المدينة التوأم (بل المدينة الأم) إلى الشمال، وباب النوبهار إلى الغرب، حيث كان يوجد معبد بوذى فى الزمن القديم، والباب الكبير أو باب كش (كيش) إلى الجنوب الذى يرتبط باسم بلدة كش، موطن تيمور الأصلى.

وجعل بقلب المدينة ميدانا عرف بميدان ريكستان (وتعنى المكان الرملى) كان مقرا للسوق الرئيسى الذى يموج بالرواج التجارى وتتوقف فيه القوافل المتجهة بين الشرق والغرب.

وشيد بالمدينة العديد من المبانى تمثلت فى عدد من القصور، وقلعة، ومسجد يحمل اسم زوجة بى بى (بيبى) خانم، ومدرسة، كما أنشأ مدينة جنائزية(شاهى

زندة)، وضريحا (جور أمـير) وغيرها، غير أنه للأسف لم يتبق من عـمائر تيمور فى سمرقند إلا القليل.

وكمـا هى سنة الحياة فى انـهيار أمم وقـيام أخرى، فـقد ظهر على مـسرح الأحداث أوائل القرن (٧هـ/ ١٣م) فى منطقة آسيا الوسطى المغول الذين بدأ طوفان زحـفـهم على ممـالك السـلاجـقـة تحت قـيـادة جنكيـزخـــان فى حــوالى سنة (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) وتمكن هذا القائد فـى مدة وجيزة من هزيمـة السلاجقـة وغزو مدينتى سمرقند والرى العاصمة فى عام(٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)،ثم امتد نفوذهم ليشمل باقى شرق العلم الاسلامى.

وعندما دخل المغول سـمرقند كانت واحدة من أكبر وأزهى المدن الخـوارزمية وأكثرها رجـاء، فحاصروها وقتلوا حامـيتها من الجند الخوارزميـة، ثم أمروا أهلها بعشرات الآلاف بالخـروج من ديارهم ومساجدهم، حيث تم ذبحـهم بدون تفرقة بين رجل وطفل وامرأة وحطموا كافة مساجدها وأشعلوا فيها النيران، ونهبوا المدينة وأسواقها ومتاجرها حتى بدت المدينة كمدن الأشباح الخاوية.

وعن خـراب المدينة على يد جـنكيـزخان يصـف ابن بطوطة ذلك بقـوله: "وكانت على شاطئه (يقصد وادى القصارين السابق ذكره) قصور عظيمة، وعمارة تنبئ عن علو همم أهلها، فدثر أكثر ذلك. . .وكذلك المدينة خرب كثير منها، ولا سور لها ولا أبواب عليها، وفى داخلها البساتين.

وقد اسـتطاع فرع من الأسرة المغوليـة أن يستقل بحكم إقليم بخـارى غرب تركسـتان ويعـرف هذا النوع بأسرة (برلاس) من سـلالة حنكيزخـان، وفى أواخر القرن (٨هـ/ ١٤م) ظهـرت هذه الأسرة المغوليـة على مسرح الأحـداث السياسـية (٧٧٢ - ٩٠٨هـ/ ١٣٧٠ - ١٥٠٢م) متـمثليـة فى أحد الحكام المحليـين الأقوياء ويدعى تيمـور لنك (أى تيمـور الأعرج)، الذى ولد بالقرب مـن كش(كيش) فى شهر سيز (المدينة الخضراء) من أعـمال ما وراء النهر فى٢٥ شعبان سنة ٧٣٦هـ/ ٨ إبريل ١٣٣٦م، وأبوه الأمير تارغاى (أورتغاى) وإلى كـيش ونواحيها، وقد اعتلى العرش سـنة (٧٧١هـ/ ١٣٧٠م)، وكان مـركز حكمه فـى أول الأمر مدينـة كيش السـابق ذكرها جنوب سـمرقند، وقـد تميز بالذكـاء والحكمة والشـجاعـة والدهاء

وسرعة الحركة وخفتها وسيطرته على جنده سيطرة مطلقة، وكان متوسط القامة، كبير الرأس، نضر البشرة، وقد ابيض شعره فى سن مبكرة، وأصاب جرحان فى قدمة ويده مشوهة بعض الشئ، وتوجد تصاوير له رسمها فنانون من الفرس والهنود وجلها محض الخيال.

وقد تسمى تيمور بعده ألقاب منها (كروكان) أى تيمور المليح، والأمير الكبير، وصاحب قران، وفى عام (٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م) لقب بالسلطان، كما لقب بعد وفاته(جنت مكان) أى ساكن الجنة، وكان لتيمور عدة زوجات حيث تزوج من أميرتين صينيتين يطلق عليهما ابن عربساه اسم الملكة الكبرى، وتزوج أيضا من تومان ابنة الأمير موسى والى نخشب (نقشب)، والوجاى تركمان خاتون حفيدة الأمير قزعان، ومن جلبان، وهى امرأة نادرة الحسن

قتلها لذنب توهمة، وكان لتيمور سرادرى كثيرات، وكان له من الأولاد أربعة ذكور.

وقد مرض تيمور فى ١٠ شعبان٨٠٧هـ/ ١٢يناير١٤٠٥م، وشعر بدنو أجله وهو فى طريقه لفتح الصين بعد أن عبر نهر جيجون، فأوصى بكل ما يريد، وتوفى فى ١٥ شعبان ٨٠٧هـ/ ١٧ يناير١٤٠٥م بالغا من العمر إحدى وسبعين سنة قضى منها ست وثلاثون سنة فى الحكم قضاها بين حروب وفتوحات، ووضع جثمانه فى تابوت من الأبنوس وحمل بعد ذلك بشهرين إلى سمرقند حتى احتفل بجنازته ودفن فى ضريح ضخم يعد أية من آيات العمارة يعرف باسم جور أمير.

وقد تمكن من وضع اسمه فى التاريخ الوسيط كواحد من أكثر القادة دموية وشراسة، فقد تغلب على أقاربه من أسرة برلاس وحطم كل خصومه وهدد كل أعدائه وكان المسلمون أول ضحاياه حيث دمر إمبراطوريتهم فى الهند وبلاد ما وراء النهر ثم اتجه إلى إيران والعراق فغزاهما وانتصر على الدولة المظفرية ودولة الكرت فى إيران، ودولة آل جلائر فى العراق، وبذلك خلف تيمور الأسرة الأيلخانية المغولية (أبناء عمومته) فى حكم إيران والعراق، بعد أن فتح تبريز عام (٧٨٨هـ/ ١٨٨٦م) وبغداد عام (٨٠٤هـ/ ١٤٠١م)، ووصلت جيوشه فى عام (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م) إلى آسيا الصغرى وتمكن من هزيمة الأتراك العثمانيين الذين

خلفوا السلاجقة الأتراك فى حكم بلاد الأناضول وأسر سلطانهم بايزيد الأول، وهزم المماليك فى حلب وحماة ودمشق دون أن يتمكن احد من رفاقه وتفادى مذابحه، ولهذا تعتبر وفاة تيمورلنك انفراجا للعثمانيين والمماليك على حد سواء.

وقد خرب تيمورلنك شيراز ودلهى ودمشق وحلب وحماة... وغيرها وذبح أهلها واتخذ من سمرقند عاصمة له، وظلت كذلك طوال حياته حتى نقل من ابنه شاه رخ(٨٠٧ - ٨٥١هـ/ ١٤٠٥ - ١٤٤٧م) مركز الحكم إلى عاصمة جديدة هى مدينة هراة، وعلى الرغم من قسوة تيمور لنك فى تدمير المدن إلا أنه اهتم برعاية الفن وظهر فى عهده الفن المعروف بالفن التيمورى، ووصلت البلاد فى عهده إلى درجة كبيرة من الثقافة الفنية، وصارت عاصمته سمرقند أضخم وأعظم عاصمة فى الشرق الإسلامى، حيث استقدم لها العمال المهرة من جميع ولايته، وقد ملئت بالعمائر الضخمة، وجعل منها سوقا يؤمها الناس من جميع الأجناس، ولم يخر وسعا فى تشجيع التجارة والصناعة وقرب له العلماء.

تابع النهضة الفنية والمعمارية قمة ازدهارها عند تشجيع وعناية الحكام بها، ومن هؤلاء الحكام الذين اهتموا بالفنون والعمارة تيمورلنك، الذى على الرغم من شهرته وقسوته كما سبق ذكره فى تدمير المدن الكبيرة المعاصرة له، مثل: دلهى، شيراز، دمشق، حلب، وحماه وغيرهما، إلا أنه اهتم بعاصمته وقاعدة ملكه سمرقند (٧٧١ - ٨٠٧هـ/ ١٣٧٠ - ١٤٠٥م) ويذكر المؤرخون أنه فعل ذلك لكى يجعل عاصمته تصبح عروس الشرق الإسلامى فى المدينة والفنون، حتى أنه ذهب إلى حد اعتبار الاشتراك فى عمائر فرضا على مهرة البنائيين والصناع فى الأقاليم المختلفة من دولته.

وعلى الرغم من مرور (٦٠٠) سنة على وفاة العاهل إلا أن الآثار الباقية فى مدينة سمرقند تدل على ما كانت عليه هذه المبانى من عظمة وفخامة، لأنها كانت تطورا طبيعيا لما كانت عليه فى العصرين السلجوقى والأيلخانى، فقد تأثر المعمار السمرقندى عند تشييده للعمائر فى العهد التيمورى بالمبانى والعناصر المعمارية والفنية التى كانت معروفة فى عمائر هاتين الدولتين فى منطقة بلاد ما وراء النهر وغيرها، حيث يعتبر أحد الورثة الشرعيين لتلك الطراز من العمائر والفنون. ولذا

جاءت عمائره فى تلك الفترة غاية فى الروعة والإتقان نتيجة تمرسه على بنائها لفترة طويلة بلغت حوالى ثلاثة قرون وربع(٤٤٧ - ٧٧٢هـ/ ١٠٥٥ - ١٣٧٠م) هى عصر الدولتين السلوجوقية والايلخانية.

غير لأنه للأسف لم يتبق من تلك المبانى الكثير بسبب الحروب والكوارث الطبيعية (الزلازل) من جهة، ومن جهة أخرى بفعل ما كان يقوم به الأهالى من استخدام الأحجار وطوب تلك المبانى بعد هجرها مثلما حدث بالفعل فى مدينتى سامراء والفسطاط، وغيرهما، ولكن المبانى الباقية توضح بجلاء ما كانت تتسم به من تناسق وروعة وفخامة فى التخطيط والزخرفة.

أ - مسجد بى بى(بيبى) خانم:

تميزت عمارة مسجد الجامع فى سمرقند فى العهد التيمورى بالضخامة والاتساع كما كان الحال فى عهد السلاجقة والايلخانيين، حيث شيد مسجد بى بى خانم الجامع على النسق الذى كانت بدايته فى مسجد الجمعة فى مدينة أصفهان، وإلى إقامة الوزير نظام الملك حوالى سنة (٤٦٦هـ/ ١٠٣٧م) فى عهد السلطان ملك شاه، ثم أصبح هو الطراز التقليدى لعمارة المساجد التى شيدت بعد ذلك فى إيران ومنطقة آسيا الوسطى.

يقع مسجد بى بى (بيبى) خانم الجامع فى الجهة الشرقية من ميدان يكستان الذى يتوسط مدينة سمرقند، وبالتحديد فى شارع طشقند، وقد بنى أواخر القرن (٨هـ/ ١٤م) فى أعقاب حملة تيمور لتلك المظفرة إلى الهند سنة (٨٠١هـ/ ١٣٩٩م)، وتم بناؤه سنة (٨٠٧هـ/ ١٤٠٤) قبل شروعه فى حملته على الصين النى مات فيها، حيث قام تيمور لنك بوضع أساس المسجد وكان فى ذلك الوقت قريبا من البوابة الشمالية للمدينة، ويحمل المسجد اسم زوجة تيمور لنك الكبرى(سراى ملك خوانم) التى عرفت باسم بى بى خانم، وذلك راجع كونها مدفونة بالقبلة الملحقة بالمسجد خلف إيوان القبة، وليس كما يزعم البعض أن بى بى خانم هى التى شيدته لزوجها، وهذه التسمية من المؤكد أنها جاءت بعد دفنها فيه لأنه كان يعرف وقت إنشائه بمسجد سمرقند الجامع، ومسجد الشاه.

وتخطيط المسجد على شكل مستطيل طول كل ضليعة الجنوبى الشرقى

والشـمالى الـغربى (١٦٧م)، ويتـوسطه صـحن مكشـوف مسـتطيل مـسـاحتـه (٧٤×٦٤م) كان مـبلطا بألواح من المرمر والفسـيفسـاء الخزفيـة، وبوسط الصحن توجد فوارة (ميضأة) للوضوء، ويتوسط كل ضلع من أضلاع الصحن إيوان.

الإيوان الجنوبى الغـربى: هو أكـبر الإيوانات، وهو إيـوان القبلة، الخـاص بصلاة الجمعة نظرا لكبر مساحـته، وهو يفتح بكامل اتساعه على الصحن، ويغطيه قبو مدبب كبير من النوع ذى الأربع مراكز، وعلى جانبى فتحته توجد مئذنتان كل منهما ذات ثمانية أضلاع، ويزين جدار القبلة زخارف هندسية منفذة بالآجر المطلى بالمينا الزرقاء، ويتخللهـا آيات قرآنية بالخط الكوفى، وكان فى مقـدمة إيوان القبلة كرسى كبيـر لتلاوة القرآن الكريم من الرخام محمول على تسع دعـامات صغيرة، وهو يتكون من عـدة ألواح يعلوها منشـورين كل منهـما على شـكل مثلث قـائم الزاوية، وقد زينت بالحفـر بأشكال الزهور والكتابات النستعليـق التى تشير إلى أنه صنع فى منتصف القرن (٩هـ/ ١٥م) بأمر من أولغ بك حـفيد تيمور لنك، ولكن عقب زلزال (١٨٧٥م) نقل الكرسى ووضع فى صحن المسجد.

وخلف إيوان القبلة توجد قـبة ضخمة قطرها (٢٠م) وارتفـاعها (٤٠م) مما يشير إلى ضخـامتها، تقوم على رقبة اسطوانيـة زينت ببلاطات القاشانى ذى اللون الفيروزى، وقد دفنت بـهذه القبة سراى ملك خانم زوجة تيـمور لنك الكبرى ابنة الحـاكم المغولى خـان كـازان، المعروفـة باسم بى بى خـانم والذى ارتبط اسـمهـا بالجامع، وإلى جـانب دفن عدد من النساء من سـلاسلة التيمـوريين، ولكن أقدم القبور جميعا هو قبر بى بى خانم.

الإيوان الشـمالى الشـرقى: يقع فى مـواجهـة الإيوان السـابق، ولكنه أقل حجما، مغطى بعقد مـدبب، وبصدره فتحة باب تؤدى إلى كتلة المدخل الرئيسى، ويطل الإيوان على الصـحن بكامل اتسـاعه، وهو يشـبه فى ذلك الإيوان المقـابل لإيوان القبلة فى المدرسة المستنصرية ببغداد (٦٢٥ - ٦٣١هـ/ ١٢٢٧ - ١٢٣٤م).

أما الإيوانان الجـانبيـان الشمالى الغـربى والجنوبى الشرقى فـمتـساويان فى المساحة وهما اقل حـجما من إيوان القبلة، ويغطى كل منهما قـبلة مزينة ببلاطات القاشـانى التى صنعت خصـيصا لتـغطى هذه القباب، وتزينـها الزخارف النبـاتية

والهندسية، والكتـابية، وهذان الإيوانان لا يفتحان على الصحن بكامل اتسـاعهما ولكن كل منهما منغلق ويربط بينه وبين الصحن فتحة باب تفتح فى الصيف وتغلق فى الشتاء؛ لأن هذين الإيوانات كانا مخـصصان للتدريس للطلبة وذلك راجع إلى طبيعة الظروف المناخـية فى منطقة آسيا الوسطى التى تزيد فيها البـرودة وتكثر فيها الأمطار فى فصل الشتاء نسبيا.

والمساحات المحصورة بين الإيوانات الأربعة تشغلها عدة غرف كانت تستخدم لإلقاء الدروس لطلبـة العلم جانب استـخدامهـا كمقـر لسكن الأساتذة والطلاب والقائمين بالعمل فى المسجد، حيث يجاور إيوان القبلة من كل جانب أربع غرف، ويجاور الإيوان المقابل له من كل جـانب سبع غرف، أما الإيوانان الجانبـيان فعلى جانبى كل منها تسع غرف، وهى مختلفة المساحـات ويتقدم جميع الغرف من جهة الصحن مساحات مغطاة بأقبية تبـدو فى مظهرها كأنها إيوانات صغيرة تشرف على الصحن مـباشـرة بدون حواجـز بصدرها أبواب تؤدى إلى تلك الغـرف التى يبلغ عددها ثمـان وخمسون غرفـة سفلية ترتكز أسـقفها على (٤٠٠) عـمود رخامى، يعلوها طابق ثانى له نفس عـدد الغرف ولكنها تطل على الصـحن بعقود مـدببة، تعلو فتحات المسـاحات التى تتقدم الغرف السفلية، ويـغطى الغرف العلوية، قباب خواذاتها مفصصة ومغطاة بالقاشانى الأزرق.

أمـا كتلة المدخل التى يـتم الوصول منهـا إلى داخل المسـجد فـهى تقع فى منتصف الواجهة الشمالية، وتبرز عن سـمت الواجهة بحيث تبدوا فى مظهرا كمن الخارج على هيئه إيوان ضخم مهيب ارتفاعه (٢٢,١٥م) يصدره فتحة باب متوجة بعـقد مـدبب هو ترديد لفتـحة البـاب السـابق ذكرها بالإيوان الشـمالى الشـرقى للمسـجد، ويغلق على هذا البـاب مصـاريع من الخشب المصفح بمعـادن نفيـسة، ويعلوا فتحة الدخول لوح رخـامى نقش به تاريخ البناء وسلالة نسب تيمور لنك، وكانت بأعلى واجهة كـتلة المدخل آية قرآنية ضخمة الكتابة كـان يشاهدها القادمين على بعد ميلين وتقرأ: "وإذ يرفع إبراهيم القواعـد من البيت وإسماعيل"، وعلى جانبى فتحة كـتلة المدخل توجد مئذنتان مثمنتان عظيـمتا الحجم والارتفاع، ويزين كتلة المدخل والمئذنتان زخـارف استخدم فيها الرخام والأحـجار المنقوشة وبلاطات القاشانى والفسيفساء.

وإلى جانب ذلك يوجد فى أركان المسجد الخارجية أربع مآذن مستديرة بواقع مئذنة فى كل ركن، يتم الوصول إليها من داخل المسجد، وبذلك يكون عدد المآذن بالمسجد ثمان مآذن، أربع مآذن، فى الأركان، واثنتان بطرفى كتلة المدخل، واثنتان بطرفى إيوان القبلة، مع العلم بأن المئذنتين اللتان على جانبى كتلة المدخل أكثر ضخامة وارتفاعا من باقى المآذن.

مما سبق تتضح مميزات وسمات عمارة المساجد الجامعة أو المسجد المدرسة فى وسط آسيا بصفة عامة وسمرقند بصفة خاصة فى عهد تيمور لنك التى توجز فى أن تخطيط المسجد يتكون من صحن مكشوف تحيط به أربعة أيونات أهمها وأكبرها إيوان القبلة، وأن للمسجد مدخل ضخم كبير تذكارى، كما تعددت المآذن التى بنيت بالأجر المغطى ببلاطات القاشانى، ومزينة بالكتابات المنفذة بالخط الكوفى المربع بقطع صغيرة من القرميد، إلى جانب الزخارف النباتية والهندسية، وهى الزخارف ذاتها التى نجدها حول إطارات عقود الأيونات، وداخل الايونات، وعلى رقاب القباب، وكتلة المدخل إلى جانب الخط النستعليق.

كما استعملت بلاطات القاشانى المتعددة الألوان والتى يغلب عليها اللون الأزرق اللازورد والفيروزى والتركواز فى تكسية القباب والجدران إلى جانب الجص المزين بالألوان.

ولم يبق المسجد على حاله بل تعرض لانتكاسات تتمثل فى أن تشييده كان على عجل إلى جانب جسمه الضخم الكبير، مما أدى إلى حدوث انهيارات فيه منذ السنوات الأولى لإنشائه كما ساهمت الزلازل فى تشوية وانهيار قبابه، وزادت من تصدع عقوده وايواناته، حتى دمر زلزال سنة(١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) جزئين كبيرين من كتلة المدخل ما زالا موجودان فى صحن المسجد.

وتقوم الحكومة الأوزبكستانية بترميم هذا المسجد إلى جانب مدرسة تيمور لنك وآثار أخرى فى سمرقند بمناسبة الاحتفال بمرور (٦٠٠) عام على وفاته باعتباره بطلهم القومى.

ب - الأضرحة في سمرقند في عهد تيمورلنك:

إذا كانت منطقة إيران ووسط آسيا قد عرفت الأضرحة فإن أقدم ما وصل إلينا في مدينة بخارى بالقرب من سمرقند، وهو ضريح إسماعيل بن أحمد الساماني الذي توفي عام (٢٩٥هـ/ ٩٠٧م) وتخطيطه مربع الشكل واستخدم في بنائه الآجر في ترتيب زخرفي جميل، وتغطية قبة قطاعها عقد نصف دائري وإلى جانب هذا الطراز عرفت نفس الفترة تشييد نوع آخر من الأضرحة على شكل برج ضريح جنبادي قابوس في إقليم جرجان شمالي غرب نيسابور سنة (٣٩٧ - ٣٩٨هـ/ ١٠١٦ - ١٠١٧م) وبدنه نجمي الشكل وتغطية قبة مخروطية.

وظل الطراز الأخير من الأضرحة معروفا في الدولة الغزنوية (٣٥١ - ٥٨٢هـ/ ٩٦٢ - ١١٨٦م) حيث وصلنا منه برجين أحدهما ينسب إلى السلطان مسعود الغزنوي (٤٨٩ - ٤٢١هـ/ ٩٩٨ - ١٠٣٠م)، والآخر للسلطان سعود الثالث (٥٠٨هـ/ ١١١٤م).

وفي العصر السلوجوقي بعد ذلك (٤٤٧ - ٥٥٣هـ/ ١٠٥٥ - ١١٥٧م) ظلت الأضرحة البرجية هي المستعملة ولكن يرجع الفضل إلى السلاجقة في تطوير شكلها، وكانت على شكلين مختلفين الأول: على شكل برج له قبة نصف دائرية، وكان يدفن فيه رجال الدين والحكام وذوي السلطان مما أكسبه طابعا دينيا، والثاني: برجي مغطى بقبة مخروطية، وكان يدفن فيه الحكام، وهو يشبه في شكله برج السلطان محمود سالف الذكر.

وفي العصر الايلخاني لم يطرأ تغيير على نموذج الضريح السلجوقي المشيد على هيئة برج وتعلوه قبة هرمية(مخروطية)، كما هو الحال في ضريح بمدينة مراغة، ينسب إلى إحدى بنات هولاكو، غير أنه عاد للظهور الضريح ذو القبة الصريحة، ومن أمثلة ذلك ضريح الجاتو الذي شيد في مدينة سلطانية فيما بين عامي(٧٠٧ - ٧١٦هـ/ ١٣٠٧ - ١٣١٦م) وهو عبارة عن مبنى مثمن الأضلاع تعلوه قبة قطاعها عقد مدبب ذو مركزين.

وفي العهد التيموري (٧٧٢ - ٨٠٧هـ/ ١٣٧٠ - ١٤٠٥م) اختفى بناء الأضرحة التي على شكل أبراج ولها قباب مخروطية، وشاع بناء نوعين من

الأضرحة الأول: الأضرحة المربعة ذات القباب الصريحة ولها أمثلة فى جبانة شاهى زنده مثل ضريح تومان أقا، وأمـير زاده وشرين بيكه، وتوغلوتكين، والثانى: طراز جديد جمع بين الطرازين السـابقين من أمثلته ضريح جور أميـر، وأضرحة أخرى فى الجبانة السالفة مثل ضريح شادى ملوك آقا.

١ - جبانة شاهى زنده:

شـاهى زنده: معناها الملك الحى، وليـس المقصـود بذلك تيمـورلنك ولكن المقصود هو (قثم بن العباس) عم الرسول ﷺ، الذى استشهد عام (٥٧هـ/ ٦٧٦م) فى إحدى الغزوات التى سبقت فـتح بلاد ما وراء النهر، وتقول الأسطورة المتداولة هناك أن قثم عندمـا سقط شهيـدا، أخذ بين يديه رأسه المقطوع ونزل بهـا إلى بئر عـميق تؤدى إلى حـديقـة تحت الأرض ولا يـزال حـيـا هناك حـتى الآن. وهو يستشهـدون على صدق القصة بالآية الكريمة المحفورة على قـبره البديع وهى قول الله تعـالى: " ولا تحسبن الذين قـتلوا فى سـبيل الله أمـواتا بل أحيـاء عند ربهم يرزقون" ونظرا لهالة التقديس والاحترام التى تحيط به فقد اعتبر المكان بقعة مباركة كان يدفن فيها الأمراء والأميرات والشخصيات الهامة، ولذا وقع الاختيار على هذا المكان ليكون مدفنا لبعض أفراد الأسرة التيمورية.

ويعود إنشاء جبـانة شاهى زنده إلى القرن(٥هـ/ ١١م) واستمـر الاهتمام بها حـتى القرن(١٣هـ/ ١٩م)، وكـانت تحتـوى على عـدد كبـير من المبـانى الجنائزية والمساجـد والمدارس اشهرها مـدرسة (تمجاش بـوجران) التى كانت أكـبر المدارس الدينية خلال العـصور الوسطى فى تلك المنطقة، وكانت هذه المبـانى تصور بصدق مجمل مدرسة ما وراء النهر المعمارية وتطورها، غير أنه دمرت معظم هذه البنايات عبر القرون، ولم يتـبق منها الآن سوى عشرون مبنى، وتعود أغلب المبـانى الباقية بحـالة جـيـدة إلى القـرنين (٨ - ٩هـ/ ١٤ - ١٥م) فى الفـتـرة مـابين (٧٧٨ - ٨٩٣هـ/ ١٣٧٦ - ١٤٣٥م) ويحيط بـهذه الجبـانة سور ويتصـدرها مدخل مـهيب شاهق الارتفـاع قام بتشييـده حفيد تيـمور لنك أولغ بك سنة (٨٩٣هـ/ ١٤٣٥م)، غير أن تيمور لم يدفن بها ودفن فى ضريح(جور أمير)، كما دفن معه بعض أقربائه المبـاشرين فى بلاد مـا وراء النهر خـلال النصف الأخـير من القـرن (٨هـ/ ١٤م) والنصف الأول من القرن (٩هـ/ ١٥م).

وممن دفن فى مقبرة شاهى زندة من أسرة تيمورلنك شـقيقتاه الأميرة (شرين بيكه آقا)، والأميرة (تركان آقا)، وابنـة أخت أو أخ تيمور الأميرة (شادى ملوك)، ومن زوجاته الأميـرة (طوغلو تكين)، والأميرة (نزمان آقا)، والأميـرة (تومان آقا) هذا إلى جانب قـثم بن العباس عم الرسـول ﷺ، كما دفن فى ذات المقبـرة عالم الفلك القاضى زاده الرومى مـعلم أولغ لنك وأمير سمـرقند فيما بعـد، وأمير زاده الذى لم يعرف من هو بعد.

والزائر لجبانة شاهى زنده بعد الدخول من البوابة الرئيسية للجبانة يجد (٣٦) درجة صخرية، يتم الوصول عن طريقها إلى حارة ضيقة فى نهايتها يقع ضريح قثم بن العبـاس عم الرسول ﷺ، ويتـقدم ضريح القـثم مجمـوعة من الغـرف مزينة بالجص ومغطاة بأسـقف خشبـية ترتكز على أعـمدة خشـبية وعلى جـانبى الحارة يوجد(١٦) ضريح بعضـها تمثل عمارة الأضرحة فى العهد التـيمورى، والأضرحة نوعان الأول: مربع الشكل وله واجـهة رئيسية بها كتلة المدخـل مثل ضريح تومان آقا (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، وضـريح شرين بيكه آقا (٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م) وضريح أمـير زاده (٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م)، والثـانى: مضلع الزوايا ولده مـدخل كبـير مثـل ضريح شريـن بيكه إحدى زوجـات تيمـور الذى أنشئ بعد الأول بحـوالى عشـر سنين، وتتميز واجهات الأضرحة التى بهـا المداخل بأنها مرتفعة، بحيث تحجب ورائها فى بعض الأحايين خوذات القباب.

وقد تميزت قباب الأضرحة فى هذه الجبانة بالتنوع الزخرفى الأخاذ فبعضها له تكسيـات خارجـية من البـلاطات الخزفيـة المزججـة والمنقوشة بالزخـارف الملونة، والفسيفساء الخزفية الملونة، وبعضهـا الأخر تزينه زخارف مجسمة فى الحجر وكأنها إحدى نباتات الصبار وقـد جاء تنفيذ الزخارف المتنوعة النباتية والهـندسية والكتابية غاية فى الدقة والإتقان، مما يجعلها وافية لأسلوب الزخرفة فى العهد التيمورى.

ولـم تقتصر الزخرفة فى بعض أضرحة جبانة شاهى زندة على تزيين خوذات القباب ورقابها بالقـاشانى والفسيفساء من الخارج، بل امتـد ذلك ليشمل واجهات الأضرحة وكـذلك كتلة البوابة الرئيـسية الجبانة، حـيث كسيت ببلاطات الـقاشانى والفسيفســاء الزجاجية المنقوشة والمطلية بدقة مـتناهية غاية فى الرقة والإبداع يغلب عليها الألوان الأزرق والفيروزى والأحمـر والأبيض والذهبى والأسود، يتضح فيها

الاهتمام الزائد الذى يليق بمكانة أصحابها حتى يمكن القول بحق إنها بمثابة متحف أصيل للطلاء الزخرفى، ويتضح لنا ذلك من خلال الآثار التالية.

٢ - ضريح شادى ملوك آقا:

يعد هذا الضريح هو أول أعمال معـمار قام به تيمور لنك، ليس فى شاهى زندة فقط بل وفى سمرقند كلها، ويعود تاريخ إنشائه إلى سنة (٧٧٢هـ/ ١٣٧٠ - ١٣٧١م) وقد دفن فيه كل من ترقان آقـا فى سنة إنشائه، ثم لحقت به شادى ملوك آقا فى العـالم التالى (٧٧٣هـ/ ١٣٧٢م) ويغلب على الشـريح اسم شادى ملوك، ومن حسن الحظ أن بقى مسـجل عليه اسماء المعماريين اللذين شـيداه وهم شمس الدين فخر الدين من سمرقند، وزين الدين من بخارى.

ويتكون الضـريح من مثمن سـفلى مبنى بالآجـر بالقاشانـى الفاتح والداكن اللون، وقد نتج عن هذا الاختلاف اللونى كـتابات بالخط الكوفى المربع، وقد فتح بأحد أضلاع المثمن مدخل بعقد مدبب ذى أربعة مراكز، أما الأضلاع الأخرى فقد فتح بكل منها فتحـة شباك مستطيلة، ومتوجهة بعـقد مدبب فى مركزيين، وترتفع جلسات الشبابيك عن أرضية الشارع بمقدار كـبير، وزينت كوشات عقود الشبابيك بالتناوب برخام خالى من الزخرفة، وفسيفساء خرفية ويعلو كل شباك منطقة تأريخ مستطيلة ملبسـة بالرخام الخالى من أى زخرفة، ويعلو المسن رقبة مسـتديرة قصيرة تأتى فوقها قبة منخفضة مزينة ببلاطات القاشانى.

٢ - ضريح شرين بيكه آقا:

شيد هذا الـضريح فى سنة (٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م)، وقد قام بتـصميمـه المعمار استـو على نصيـفى، وهو يتكون من مـربع سفلى بالآجـر، بوسط كل ضلع من أضلاعه من أعلى فـتحة شباك مسـتطيلة متوجه بعقد مـدبب ذى مركزين، ويعلوا التربيع مثـمن فوق رقبة اسطوانية ممتـدة مزينة بزخارف كتابيـة بالخط الكوفى المنفذ ببلاطات القاشانى، ويجد بالرقبة أربعة شبابيك مستطيلة، يقع كل شباك منها فوق شباك من شبابيك المربع السفلى للضريح، ثم تأتى بعد ذلك خوذة القبة التى ترتكز عند اتصـالها بالرقبـة على صف من المقرصنـات، وكان يغطى القبـة بلاطات من القاشانى ولكنها تساقطت.

٣ - ضريح أمير زاده:

بقى هذا الضريح سنة (٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م)، ويتميز بأن له مدخل ضخم، بواسطة فتحة بعقد مدبب ذى أربعة مراكز، وتزينه بلاطات القاشانى وقطع الفسيفساء الملون والكتابة النستعليق، وبصدر كتابة المدخل فتحة باب تؤدى إلى ضريح مربع تغطيه قبة مخصوصة كأنها نبته صبار، والضريح بقبته منخفض عن كتلة المدخل.

٤ - ضريح تومان آقا:

يرجع تاريخ إنشاء هذا الضريح إلى سنة (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، وهو يتبع فى طرازه القباب السمرقندية ذات الرقبة الاسطوانية الممتدة، وهو عبارة عن مربع سفلى تزينه بلاطات القاشانى، ويعلو التربيع السفلى منطقة انتقال مثمنة، فوقها رقبة اسطوانية مستديرة ممتدة تزينها قطع الفسيفساء وبلاطات القاشانى ثم تأتى بعد ذلك خوذة القبة التى قطاعها على هيئة عقد مدبب ذى أربعة مراكز، وهى مغطاة ببلاطات القاشانى، ويتم الوصول إلى داخل هذه القبة عن طريق كتلة مدخل يتوسطها عقد مدبب ذو أربعة ذو أربعة مراكز، كانت مزينة ببلاطات القاشانى، لم يتبق منها إلا أجزاء قليلة، وبصدر حجم المدخل فتحة باب مستطيلة متوجه بعقد مدبب، وهنا نجد كتلة المدخل أقل ارتفاعا من رقبة القبة.

ولو أننا عقدنا مقارنة سريعة بين جبانة شاهى زنده بسمرقند، وجبانة المماليك المعاصرة لها فى القاهرة نجد ثمة اختلاف، فالأخيرة لم يضمها سور واحد له مدخل كما هو الحال فى شاهى زندة لأن المماليك لم يفكروا قط فى تخصيص جبانة تضمهم جميعا. ولكن نرى أن كل سلطان أو أمير كبير قد ابتنى لنفسه مجمعا دينيا خيريا خاصا به يتكون فى الغالب من مدرسة أو مسجد أو خانقاه وسيل يعلوه كتاب، وقبة ضريحية له ولأولاده، إلى جانب خلاوى (طباق) للطلبة، وحوش لدفن العتقاء والمقربين، ومربع لمد السماط، وأحيانا قصير (أى قصر الصغير)، كما هو الحال فى المجموعة البنائية لكل من السلطان اينال (٧٩٤ - ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢ - ١٣٩٣م) والسلطان برسباى (٨٣٥هـ/ ١٤٣٢م) والسلطان قايتباى (٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م) والأمير كبير قرقماس (٩١١ - ٩١٣هـ/ ١٥٠٦ -

١٥٠٧م) كما شيدت فى بعض الأحايين أضرحة مفردة مثل ضريح كل من عبد الله الدكرورى (٨٧١هـ/ ١٤٦٦م) وتنكز بغا حوالى (٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م) وغيرهما، كما تختلف مقابر سمرقند بأنها كانت تبنى بغرض إضفاء القداسة وهالة الاحترام للمدفون بها، فى حين كانت مقابر المماليك مجرد مبانى ملحقة بمنشآت ذات طابع خيرى للخدمة العامة.

غير أن يلاحظ أن أسلوب بناء الأضرحة فى شاهى زندنه يشبه إلى حد كبير يثير الدهشة الأسلوب المتبع فى الأضرحة والقباب المصرية لها تقريبا، ولعل ذلك راجع كما سبق ذكره إلى هجرة كثير من الصناع والبنائيين من تلك الأصقاع إلى مصر ومشاركتهم فى تشييد هذه المبانى.

فإن خصوبة مصر ورغد العيش فيها ثم بعدها عن أخطار المغول الذين قامت عواصفهم من وسط آسيا تكتسح الأقطار وتلتهم الناس، قد جعلت من الديار المصرية خير ملجأ يتوفر فيه الأمن والعيش، فهاجر إليها كثير من الفرس وأهل العراق والشام فى القرن (٧هـ/ ١٣م) مما جعل تأثيرات معمارية وزخرفية تظهر فى مصر فى ذاك القرن والذى يليه، ومن أمثلة ذلك استخدام الخوذة المفصصة التى تشبه العمالة التى تكسوها بلاطات خزفية خضراء اللون بأعلى مئذنتى جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة سنة (٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م)، قنتى خوند سمرا (التربة السلطانية والمؤرخة بالقرن(٨هـ/ ١٤م).

كما ظهر بمصر فى تلك الفترة نوع من القباب عل يمثال القباب السمرقندية لها رقبة تتميز بالطول، والخوذة من غطاءين حيث يبدأ تكويرها من الداخل من عقد شباك الرقبة بينما يبدأ التكوير من الخارج على مسافة كبيرة من عتب الشباك المذكور، ووجد ذلك فى القبة التى تعلوا الضريح الواقع بالركن الغربى من مدرسة الأمير صرغتمش الناصرى (٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م) والقبة التى تعلوا المحراب فى إيوان القبلة بنفس المدرسة، ولهذه القبة نظيرا آخر أرقى منها هو قبتا خون سمرا (التربة السلطانية) السابق ذكرها بصحراء السويطى وقبة يونس الدوادار بالحطابة (قبل ٧٨٣هـ/ ١٣٨٢م).

ومما يؤكد هجرة المعماريين والفنايين ما ذكر من أن مهندس خانقاه بيبرس

الجاشنكير (٧٠٦ - ٧٠٩هـ/ ١٣٠٦ - ١٣١٠م) كان مغوليا، كما قام معمارى فارسى قدم من تبريز ببناء مئذنتى مسجد قوصون على مثال المئذنة التى عملها خواجا على شاه وزير السلطان أبى سعيد فى جامعة بمدينة توريز (تبريز) من بلاد فارس، وكانت على شكل مئذنة خانقاه قوصون المنشأوة سنة (٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م) وهى باقية إلى الآن بالقرافة الصغرى، كما يرجع أن المعمارى نفسه هو الذى قام ببناء مئذنتى مسجد الناصر محمد بالقلعة.

وعلى أى حال إذا كان هناك تأثير معمارى وزخرفى فارسى فلم يكن من جانب واحد، حيث كانت هناك اتصالات سياسية وحضارية وعن طريقها انتقلت بعض التأثيرات فى مصر والشام باعتبارهما من أجزاء الدولة المملوكية إلى فارس ووسط آسيا، من ذلك ما ذكره المقريزى فى حوادث سنة (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م) من أن السلطان المنصور قلاوون جهز "هدية سنية إلى بركة ومبلغ ألفى دينار برسم عمارة جامع قرم وأن تكتب علية ألقاب السلطان وجهز حجار لنقش ذلك وكتبتها بالا صباغ، وهذا يدل على انتقال التأثيرات المملوكية إلى العمارة المغولية مثلما حدث بالعكس.

وإذا كان لين بول يقرر أن القباب البصلية ذات الرقبة الممتدة هو الشكل المفضل فى بلاد تركستان وفارس والعراق ثم انتقل إلى مصر فهذا صحيح، ولكن نود أن نقرر أيضا أنه بناء على النص السابق الذى ذكره المقريزى يرجح أن التفصيص الذى عرفته تلك المناطق هو تأثير مصرى، حيث كان لمصر قصب السبق فى هذا منذ العصر الفاطمى فى قبتى عائكة والجعفرى (٥١٤ - ٥١٩هـ/ ١١٢٠ - ١١٢٥م)، وقبة السيدة رقية (٥٢٧هـ/ ١١٣٣م) وغيرهم، وحتى العصر المملوكى الجركسى، ثم ظهر مرة أخرى فى العصر الحديث فى إحدى قبتى جامع كعب الأخبار بالناصرية، كما أن القبة البصلية التى أصلها العقد المدبب المنفوخ ذو الأربعة مراكز المعروف خطأ بالعقد الفارسى هو أيضا عقد مصرى الأصل ظهر فى العصر الفاطمى فى زيادة الخليفة الحافظ فى الأزهر سنة (٣٢٩ - ٣٦١هـ/ ٩٧٢م)، ووجوده فى هذا الأثر يسبق أقدم الأمثلة فى فارس بنحو قرن من الزمان إذ يؤرخ المثل الموجود فى رباط مالك فى فارس بالنصف الثانى من القرن (٥هـ/ ١م).

غير أن مبانى سمرقند تتميز بأنهـا أكثر براعة فى استخدام بلاطات القاشانى والفسيفسـاء الخزفية فى تزيين الواجهات والقبـاب، ولعل الإجابة تكمن فى أمصر ليس بها الطينة الجيدة لصناعة البلاطات الخزفية والفسيفساء والخزفية، وأن ما صنع منها لم يكن جيدا، ولا تخرج عن كونها بلاطات ذات لون واحد، أخضر أو أزرق أو أبيض زينت بها بعض القـباب، ولكنها لا ترقى لبلاطات سمـرقند وغيرها من آسيا الوسطى وإيران.

٥ - ضريح جور أمير:

يقع ضريح جور أمير (جـورى مير) فى حى روح أباد إلى الجنوب من ميدان ريكستان قرب بوابة بخارى، إحدى بوابات مدينة سمرقند القديمة، وهذا الاسم لا يطلق فقط على الضريح المدفون به تيمورلنك، حيث أن هذا الضريح ليس مفردا، لكنه يطلق على مجـموعة بنائية الضريح جـزءا منها وتتكون المجموعـة من خانقاه ومدرسة متقابلتان وفناء مـربع مكشوف على ثلاثة جوانب منه قاعات، وفى أركانه الأربعة أربع مآذن، قام بتشييدها من قبل محمد سلطان، حفيد تيمورلنك والقريب إلى قلبه الذى كان يؤهله لتولى الحكم بعده قرب نهاية القرن (٨هـ/ ١٤م)، وعندما مات مـحمـد سلطان على حـين غرة فى طريق عـودته بحملة عـسكرية فى آسـيا الصغرى سنة (٨٠٥هـ/ ١٤٠٤م) وعندما لحق به تيمور فى نفس العام الذى تم فيه تشييـد الضريح، دفنا الاثنان فى قبرين مـتجاورين، وفى وقت لاحق دفن معـهما أبناؤه وأحفاده بما فيهم أولغ بك الذى أشرف على إكمال الضريح، وكان تيمورلنك قد أوصى من قبل وفاته بأن يدفن عنـد قمى أستاذه ومعلمه (ميرسـيد بركة) فجئ بجثمان الرجل من بلده (انخوى) فى أفغانستان ودفن فى الضريح ووضع قبر تيمور بمحاذاة قدميه.

وقد انعكست على تصميـمات الضريح ونقوشه كل سمات عـهد تيمورلنك من القـوة والجبـروت والترف والجـمال، ولفـناء المجمـوعة مـدخل ضخم مـزين بالفسيـفساء من إنشائه أولغ بك عليه تـوقيع من قام ببنائه الذى جاء بصيـغة عمل العبـد الضعيف محـمد بن محمود الـبناء الاصفهانى سنة ثمـان وثلاثين وثمانمائة ويحيط بالمجموعة سـور من الرخام محفورا حفرا دقيقا وقـد انتهى تعمير البناء فى عهد أولغ بك.

وقد انهارت العديد من المبانى بعد تشييدها مباشرة، وعلى وجه الخصوص المنزل (الاستراحة) والمسجد (المصلى)، والمآذن التى انهارت سنة (١٣٢١هـ/١٩٠٣م) ثم أضافت هزة أرضية سنة(١٣٢٥هـ/١٩٠٧م) ضربة أخرى قاسية للمدموعة حيث لم يتبق سوى الضريح وإطلال المدرسة والخانقاه ومئذنتين، وهذا الضريح ذو شهرة واسعة، ربما يرجع ذلك إلى طرازه المعمارى البديع، أو إلى كونه المدفن الذى يرقد به جثمان تيمورلنك، وربما يرجع إلى العاملين بها.

المدارس فى سمرقند العهد التمورى:

اهتم تيمورلنك بتشييد المدارس ومن ذلك مدرسته فى سمرقند التى شيدت سنة(٨٠٣هـ/١٣٩٩م)، وهى متهدمة ألان وتدل بقاياها أنها تتبع هى الأخرى طراز المدارس السلجوقية، ويتشابه تخطيطها إلى حد كبير مع تخطيط مسجد بيبى(بى بى) خانم، حيث أن تخطيطها عبارة عن صحن أوسط مكشوف تعامد عليه أربعة أيونات على جوانبها حجرات مقببة من طابقية تطل على الصحن ببوائك ذات عقود مدببة من النوع ذى الأربعة مراكز، ترتكز على دعامات (أكتاف) وكانت هذه الحجرات مخصصة للدرس والتحصيل وسكنى الطلاب والأساتذة، وتتميز واجهة المدرسة الرئيسية بأنها شاهقة الارتفاع لان المعمار يصبغ الفخامة على كتلة المدخل فيجعلها مرتفعة وتزينها على جانبيها منراتان أسطوانيتان مرتفعتان.

ولاغرو فى ذلك أن يؤثر على تخطيط المسجد الجامع والمدرسة فى بعضها البعض، فإذا نظرنا إلى مصر فى العصر المملوكى بشقيه البحرى والجركس نجد أنه لا يمكن التفريق بين تخطيط كل من المدرسة أو المسجد أو الخانقاه، حيث تخطيط كل منها عبارة عن صحن أوسط مكشوف بوسط كل ضلع من أضلاعه إيوان وفى الأركان توجد مدارس فرعية وغرف الطلبة كما هو الحال فى مدرسة وجامع السلطان حسن (٧٥٧ - ٧٨٨هـ/ ١٣٨٤ - ١٣٨٦م)، وخانقاه ومدرسة الظاهر برقوق (٧٨٦ - ٧٨٨هـ/ ١٣٨٤ - ١٣٨٦م) بالنحاسين، أو درقاعة وسطى على جانبيها أيونات وسدلتان قايتباى بقلعة الكبش (٨٨٦ - ٨٩٦هـ/ ١٤١٨ - ١٤٩٠م)، ومدرسة بصحراء المماليك (٨٨٠هـ١٧٥٤م).

القصور والمنازل والخيام:

تشير المعلومات القليلة المعاصرة التى جاء ذكرها فى بطون بعض كتب المؤرخين إلى أنه كان بسمرقند فى عهد تيمورلنك العديد من الدور الخاصة الأنيقة والقصور السلطانية تتناثر على امتداد مساحة شاسعة تمتاز ببساتينها الرائعة، تمتد إلى مسافة خمسة أو ستة أميال أو أكثر، وإلى جانب ذلك كانت توجد عشرات الآلاف من الخيام التى كانت مسرحا للحفلات الكبرى والسمر، ويذكر وصفها بما ورد فى قصص ألف ليلة وليلة، غير انه لم يتبق شيء من هذه الدور أو القصور أو الخيام، وكل ما يعرف عن عمارة هذه المبانى كما سبق ذكره من خلال كتب المؤرخين، وبالرغم من قلتها التى لا تشبع نهم الباحث فى مجال الآثار والفنون ولكنها توقفنا على جانب مهم من حضارة تلك المدينة من ناحية المبانى المدنية الاجتماعية.

أما بالنسبة للقصور: فكانت تقع فى وادى (كان كل) الذى يبعد ميلين إلى الشمال الشرقى من مدينة سمرقند فى سهل ترويه قنوات متعددة، ويقع على مقربة من نهر زرفشان، وكان عدد هذه الخيام يقرب من خمسة عشر ألفا أو يزيد، ولا ينزل بها رجال البلاط فحسب، بل وكذلك الشعب على اختلاف طبقاته، وإلى جانبها كانت توجد المحال التجارية الأنيقة والمصانع يمارس فيها الصناع حرفهم والحمامات وبها المياه الساخنة.

وأول خيام كانت تضرب هناك خى خيام الأسرة الحاكمة، وتتوسط فى الغالب المعسكر الذى كان ينتشر على هيئة المروحة، وتتفرغ الخيام الأخرى عن تلك المجموعة الوسطى، وكان لكل وزير ولكل أسرة مكانه المخصص له، فمنهم من كان ينزل ناحية اليمين أو ناحية الشمال أو فى الصف الأول أو الثانى أو الثالث كل حسب مكانته فى نظام محكم لا تعرف الفوضى طريقها إليه، حتى كان يبدو (كان كل) الجميل هذا فى وقت قصير مذهل والأعلام الملونة العديدة ترفرف فوق خيامه، وكأنه حوض من الأزهار الفاتنة يداعبها النسيم.

وقد تعددت أشكال الخيام فمنها ما كان على أشكال الناقوس، وهو الشكل التى كانت عليه خيام الترك وهو الغالب، ومنها ما كان على شكل الخيمة العربية المستطيلة، أو على شكل الخيمة الفارسية المربعة التى تعرف باسم سرا برده(قصور الستائر).

وكانت الخيمة الرئيسية الخاصة بالحاكم تتميز بأن لها سقف على هيئة القبة ترتكز على سبعة قوائم (دعائم) زرقاء مذهبة فى استدارة، ويلفها جميعها نسيج من الحرير على هيئة الرواق، وإلى جانب ذلك كانت توجد أروقه ذات أعمدة على جوانب الخيمة كلها، ولكن بكل رواق ستة أعمدة، وقد استخدم فى عقد هذا البناء كله ما يزيد على الخمسمائة من الجدائل والأصفر والأبيض، وكانت أرض الخيمة تفرش ببساطة أحمر مشغول بالذهب وزخارف أخرى من الحرير أبدعها الذى فى الجزء الأوسط وبأركانه أربعة نسور كبيرة قد نشرت أجنحتها، وكانت هذه الخيمة تبدو للرائى من بعيد وكأنها قلعة، وكان يحيط بالخيمة بعد ذلك سور عال ملون فى بعض أجزائه، وتزينه الشرفات والأبراج الصغيرة.

وإلى جانب هذه الخيمة كانت هناك خيام أرخى لا تقل فى روعتها وفخامتها كانت تنزل بها السلطانة وكبار الأميرات، وكان بعضها مغطى بالحرير الأصفر أو القرنفلى منها وهو على فرسه، وكان يسدل عليها الأبسطة الموشاة بالذهب والفضة، وكان لها نوافذ يسدل عليها نسيج من سندس سميك حين تنفتح، وعلى جانبيها ستائر أخرى من الحرير تستجدم لتمنع عنها أشعة الشمس.

وعلى هدى الآثار القليلة الباقية فى سمرقند من ذلك العهد يتضح أن المؤرخين لم يبالغوا فيما ذكروه عن هذه القصور والخيام.

مما سبق لنا يتضح لنا أن العمارة فى سمرقند فى العهد التيمورى تميزت بعدة سمات هى:

أولا: من حيث المواد الخام المستخدمة فى بناء العمائر وزخرفتها:

١ - تميزت منطقة بلاد ما وراء النهر بما فيها سمرقند بأنها غنية بأنواع ممتازة من الأحجار، ما بين جيرية ورملية وجرانيتية ورخام ومرمر، ولهذا جاءت المبانى المشيدة من تلك الأحجار البديعة فى صلابتها واستجابتها للنحت والزخرفة فى آن واحد، وأنها ذات متانة وجمال، فالجدران والبوابات والأعمدة والدعامات والعقود تقوم متينة محكمة، مما مكن البناء والمزخرف على ابتكار أسلوب مميز.

٢ - كما وجد الآجر (الطوب المحروق) الذى استخدمه المعمار بدرجة لا تقل مهارة عن استخدامه للأحجار، فقد وجد صناع الآجر بهذه المنطقة أتربة

ورمالا ممتازة أجادوا حرقها ومزجها وإخراج أشكال وألوان منها فى غاية المتانة والصفاء، وقد أبدع البناؤن فى استخدام هذا الآجر فى البناء والزخرفة على نحو لا يضارعهم فيه إلا البناءون الأندلسيون الذين استخدموا الآجر فى بناء الواجهات والعقود والأعمدة والقباب ومناطق انتقالها والازارات والمآذن، إلى جانب استخدام الآجر فى عمل أشكال زخرفية من مجرد تشكيل أوضاعا الآجر.

٣ - إلى جانب ذلك استخدم الجص، ولم يستخدم هذا كما هو الحال فى عمائر العصور الإسلامية الأخرى كمادة تغطى الجدران لتخفى هيئة الآجر أو اللبن أو تسد شقوقها أو أرضيته لعمل بعض الزخارف، بل استخدم هنا بطريقة مبتكرة حيث استخدم لتغطية مساحات صغيرة وسط زخارف الآجر لإضافة زخارف من ألوان أخرى، وقد ينقش الجص على هيئة الآجر نفسه، أى إن الجص يستخدم هنا كعنصر أساسى لا كمال هيئة العناصر المعمارية ذاتها.

٤ - وأيضا برع معماريو سمرقند كما هو الحال فى منطقة وسط آسيا وإيران فى استخدام بلاطات القاشانى والفسيفساء الخزفية نفى تغطية الجدران والقباب ورقابها وكان يقصد من ذلك إدخال نوع جديد من التلوين لزينة المبانى، لأن الجص لا يقبل الألوان إلا إلى حد معين، ولكن ألوان القاشانى تمتاز بالصفاء والعمق والثبات، ويقال أن القاشانى دخل فى زخرفة العمائر الإسلامية فى القرن(٨هـ/ ١٤م) عندما فقد الجص طلاوته واحتاج المعماريون إلى مادة جديدة، على حين قل بل ندر استخدام الرخام فى تغشية الحوائط، ومن الأمثلة القليلة التى استعمل فيها الرخام مسجد تيمورلنك فى سمرقند المعروف بيبى(بى بى) خانم، وضريح شادى مملوك.

ثانيا: من حيث الخصائص والميزات المعمارية الفنية:

١ - بالنسبة للمداخل تميزت بأنها ضخمة وبارزة ومرتفعة، يتوسطها عقود من النوع المدبب ذى الأربعة مراكز، كما فى مسجد بى بى خانم وضريح جور أمير، وهى متأثرة فى ذلك بالمداخل الإيرانية التى عرفت منذ القرن(٥هـ/ ١١م) فى مسجد الجمعة بأصفهان، ولم يظهر هذا النوع من المداخل فى مصر، ومن جهة أخرى فإن المداخل تؤدى إلى داخل المنشأة مباشرة وتقع على محور واحد مع إيوان

القبلة، على عكس مداخل القاهرة التى تشتمل على دركاة تلى فتحة الدخول، ثم ممر منكسر يصب فى الصحن كما فى مدرسة صرغتمش وخانقاه شيخو، ومدرسة السلطان حسن، ومدرسة الظاهر السلطان برقوق وغيرهم، وللمنشأة السمرقندية مدخل واحد رئيسى على عكس مصر التى يوجد بمنشأتها فى بعض الأحايين أكثر من مدخل مثل مسجد الظاهر بيبرس بالظاهر، ومسجد الناصر محمد بالقلعة، وخانقاه فرج بن برقوق بصحراء المماليك.

٢ - أما المآذن فى منشآت العهد التيمورى فقد تميزت بتعددها فى المنشأة الواحدة كما فى مسجد بى بى خانم، وضريح جور أمير، فى حين هذا الأمر لا يوجد فى منشآت القاهرة، فيما عدا محاولة وحيدة سبقت الإشارة إليها فى مدرسة السلطان حسن ولكنها باءت بالفشل، وتوجد المآذن فى أركان البناء أو على جانبى كتلة المدخل، وهى إما مستديرة أو مثمنة ولكن يغلب عليها الشك لالمستدير (الأسطوانى)، وهى تستدق كلما ارتفعت لأعلى، ولا يكون للمئذنة فى معظم الأحايين إلا شرفة واحدة فى نهايتها تقوم على مقرصنات أو دلايات مما يكسب المئذنة شكل المنار، وهذه المآذن تختلف عن سائر المآذن التى بناها المسلمون فى الشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس فى أنها لا طوابق لها ولا نوافذ، فهى بناء شاهق بنى وليس فيه سلالم تؤدى إلى دورات يقف فيها المؤذن لأنها لم تكن تستخدم فى الآذان بسب ارتفاعها الكبير، وإنما كان المؤذنون يؤدون مهمتهم من فوق سطح المساجد.

ونظرا لتجاوز المعمارى الحد فى ارتفاع المآذن لهذا كان لابد من توسيع قاعدة المئذنة على الأرض وتعميق أساساتها حتى تتحمل هذا الارتفاع، وكان لابد له أيضا من فصل المئذنة عن البناء لأنها أصبحت بناءا قائما بذاته لا يهمل وصله بالمبنى، ويعود ظهور هذا الطراز من المآذن وأسيا الوسطى إلى زمن السلاجقة.

وهنا يمكننا أن نقول أنه ربما كان بناء المآذن فى الطراز السلجوقى وما بعده متأثرا بالأضرحة البرجية التى عرفتها إيران منذ حكم الأسرة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩هـ/ ٨٧٤ - ٩٩٩م)، وبعد ضريح (جنبادى قابوس) أكبر وأقدم مبنى معروف من هذه الأضرحة البرجية التى ظهرت فى العمارة الإسلامية فى إيران فى العهود الأولى، وقطر هذا البرج(١٥,٢٥م) وارتفاعه (٥٠,٤٠م) ويضيق قطر المبنى

تدريجيا كلما ارتفع لأعلى، وقد شيده حاكم إقليم جرجان الذى يدعى قابوس شمالى غرب نيسابور فى حوالى سنة (٣٩٧ - ٣٩٨هـ/ ١٠١٦ - ١٠١٧م) ومع أن فكرة تشييد هذه المبانى كانت بغرض استخدامه كضريح ألا أنه من المعتقد أنه كان رمزا لقوة الحاكم السياسية، كما كانت المآذن الاسطوانية، الشاهقة الارتفاع التى تستدق كلما ارتفعت لأعلى رمز الفخامة وقوة ومتانة البناء إلى جانب كونها تعنى الرمز السابق وهو هيبة الدولة والحاكم السياسية.

٣ - تميزت القباب السمرقندية بأن أغلبها يقوم على رقاب عالية اسطوانية أكثر مما هو مألوف عند تشييد القباب فى مناطق كثيرة من العالم، كما تميزت بشكلها البصلى المفصص بعد أن كانت فى العصر المغولى ذات شكل بصلى خفيف. والمآذن والقباب السمرقندية قد تكون من الحجر المنقوش بالزخارف أو من الآجر غير المطلى ذى الألوان المتعددة، أو بالأجر المطلى بالدهاء والفسيفساء المصنوعة منه، حيث وصل الفنان بهذا الأسلوب إلى أطيب النتائج التى بلغت حد الإتقان والإبداع، وقد تغطى بمربعات من القاشانى ذى رسوم تحت الدهان، أو لنجوم من القاشانى يملأ ما بينها من الفراغ فى زيادة الألوان التى استعملوها فكانت الفسيفساء تشمل الألوان الأزرق والأخضر والأصفر والأسمر والأحمر والأبيض.

٤ - تميزت مساجد ومدارس سمرقند بأن تخطيطها عبارة عن صحن أوسط مكشوف مربع أو مستطيل تحيط به أربعة أيونات بعضها مغطى الأخر مغطى بقباب، وعلى جوانبها مجموعات من الغرف، ويتميز أيون القبلة، بأنه أكبر الأيونات حيث يحتوى على محراب للصلاة ومنبر للخطبة وتقام فيه صلاة الجمعة كما فى مسجد بى بى خانم.

٥ - عنى الفنان السمرقندى فى العهد التيمورى، كما كان الحال فيما سبق باستخدام المقرصنات فى تزيين العمائر عناية تذكر بما نهجه زملاؤهم فى الطراز الأندلسى المغربى، كما فى قصر الحمراء، ولكن بشئ من البساطة دون المبالغة التى تفقد العمائر الاتزان والحشمة.

❊ ❊ ❊